قَصَصٌ عَرَبيَّة

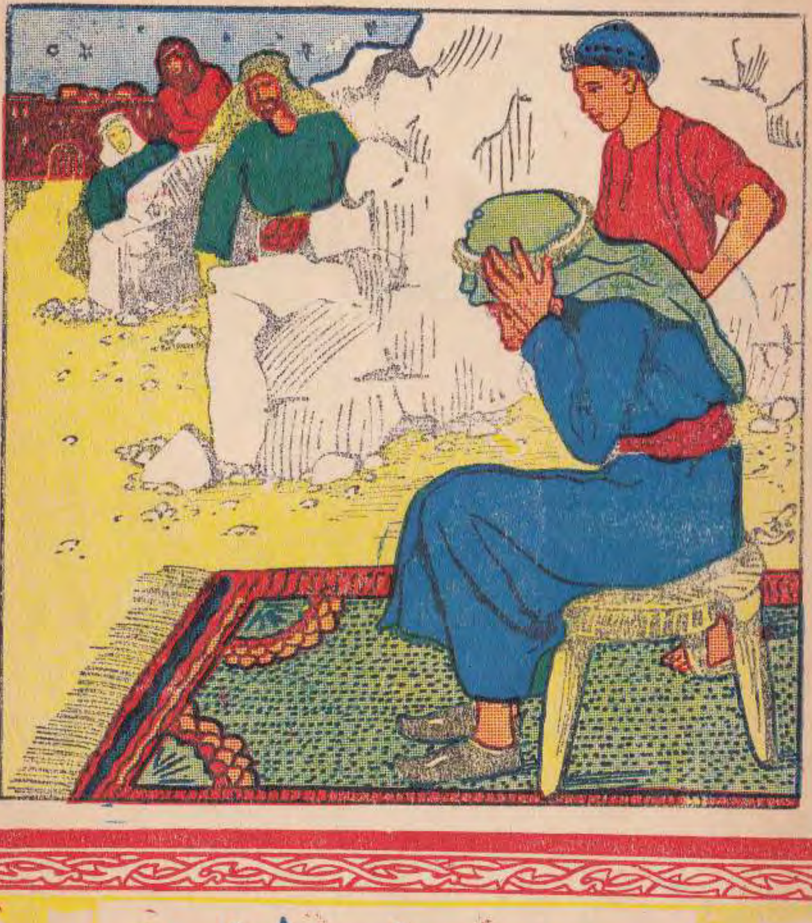

الاعترافُ بالجميلْ

قصص عربية

الاعتراف بالجميل

تأليف

محمد ابو الفضل ابراهيم

عبد المجيد قطامش

يطلب من :

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى "الفجالة"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه سلسلة من القصص العربية ، اخترناها مما زخرت به كتب الأدب والتاريخ ؛ من أخبار العرب وأيامهم ، وما وقع فى قصورهم وخيامهم ، وما تناقلته الألسنة فى مجالسهم وأسمارهم ، ثم صغناها فى أسلوب سهل ، قريب من الفطرة ، بعيد عن الابتذال والغموض .

وإنا لنرجو أن يحتذى أبناؤنا العرب ما تضمنته هذه القصص من مثل أخلاقية رفيعة ؛ كالوفاء بالوعد ، والعدل ، والكرم ، والشجاعة ، وحماية المستجير ، وإغاثة الملهوف ...

كما نرجو أن تدعوهم هذه القصص إلى القراءة ، بما فيها من حوادث شائقة ، وسرد جذاب ، وحوار ممتع .

ولعل أهم ما نرجوه من وراء هذه القصص العربية أن نعرض على أبنائنا صورا من تاريخنا الحافل ، ومثلا من ماضينا المجيد ، ذلك أن الأمة العربية تجتاز الآن عصرا من أزهى عصورها ؛ عصر بعث عربى ، ووعى عربى ، ومن واجبنا أن نتدارس هذا التاريخ ، ونعتنق هذه المثل ، ونسير فى نهضتنا على هدى من عروبتنا الأصيلة .

المؤلفان

الاعتراف بالجميل

١

جلسَ المأمونُ ذاتَ ليلةٍ فى قصرِه ببَغْدادَ ، معَ جماعةٍ من عظماءِ الدَّوْلةِ ورؤُسَائِها ، وأَخذُوا يتحدَّثون ، ويتنقَّلونَ من موضوعٍ إلى موضوعٍ ، حتَّى انتهَوْا إلى ذِكْرِ البَرامِكةِ ، فقالَ المأمونُ :

— حقًّا ، لقدْ خدمَ البرامكةُ الدولةَ خِدمةً جَليلةً ، وأَخْلصَ وزراؤُهم لأبِى وأَجْدادِى . ولكنَّهمْ فى آخرِ أيَّامِهم اغْتَرُّوا بأنفُسِهم لمَّا رأَوْا لهم مَكانةً ممتازةً فى الدَّولةِ ، ولمَّا رأَوْا نُفوذَهم يمْتَدُّ ، وسُلطانَهم يقْوَى . وزادَ غرورَهُم لمَّا رأَوا النَّاسَ يقصِدونَهم دونَ الخلَفاءِ فى قضاءِ الحوائجِ ، وحلِّ المُشْكلاتِ . وقد كانَ أَبي الرَّشيدُ على حقٍّ حينَ خلَّصَ الدَّوْلَةَ مِنْهُم ، فاستَوْلَى عَلَى أَمْلاكِهم وأَمْوالِهم ، وقتل من رجالِهم الكثيرَ وحبَسَ الكثيرَ . ونَحنُ الآنَ نحمَدُ الله الذِى أَراحَ منهم البلادَ على يدِ أَبى

العظيمِ رَحْمةُ اللهِ عليْه .

فقال أَحدُ الحاضرين :

ـــ هلْ يعلمُ أَميرُ المؤمِنينَ أَنَّ البرامكةَ ما زالوا يُذْكَرُونَ فى بَغدادَ وغيرِ بغدادَ ، وأَنَّ الناسَ ما زالوا يقولونَ فيهم الشِّعرَ ، يذكرونَ فيهِ فضائِلَهم ومحاسِنَهم ؟

فعجِبَ المأْمونُ من هَذا الكلامِ وفزِعَ ، وسأَلَه :

ـــ وكيفَ ذلكَ ؟

فأَجابَه :

ـــ بلغنِى أَنَّ شيخًا هرِمًا يذْهبُ كلَّ ليلةٍ إلى خَرائبِ دُورِ البرامكةِ ، فيجْلسُ فيها ، ويُنْشِدُ شِعْرًا يذكرُهم فيه ، ويبكِى عليهم .

فقالَ المأْمونُ وقدْ ظهَر الغضبُ علَى وجْهِهِ :

ـــ هذا خبرٌ لم أَسْمَعْ به إلَّا السَّاعةَ ، وإنَّه لَخَبَرٌ عجيب .

وسكتَ قليلًا يُفكِّرُ ، ثمَّ دعَا بثلاثةٍ من خَدَمِهِ ، وقالَ لهم :

ـــ اذهبوا الآنَ ، ونَفِّذُوا ما آمُركم به ، فإنَّه قدْ بلَغني أَنَّ شيخًا يحضُرُ كلَّ ليلةٍ إلى خرائبِ دُورِ البرامكةِ ، فيقولُ فيهم الشِّعرَ ، ويبكِي عليْهم . اذهَبُوا إلى هذِه الخرائبِ واستَتِرُوا وراءَ جِدارٍ من

جُدْرانِها ، فإذَا رأَيتُم هذَا الشَّيخَ فأَلْقُوا عليه القبْضَ ، وأْتُونِى به .

فامْتَثَل الخدمُ أَمْرَ الخليفةِ ، وذهبُوا إلى الخرائبِ ، واختَفَوْا وراءَ أَحدِ الجُدران . ولَمْ يُطِل انْتِظَارُهم ، فما هِىَ إلَّا لَحظاتٌ ، حتَّى أَقبلَ غلَامٌ صغيرٌ ، معه بِساطٌ وكُرسىٌّ ، ففرَشَ البِساطَ ، ووضع فوقَه الكُرسىَّ ، ثم جاءَ شيخٌ كبيرٌ ، عليْه مهابةٌ ووقَارٌ فجلسَ على الكُرْسىِّ ، وجَعلَ يُنْشِدُ شِعْرًا طويلًا ، يذْكُر فيه البرامِكة ، ويبكِى عليْهم ، وعلى أَيَّامِهم الجميلةِ ، وكرمِهم الفيَّاضِ ، ويُطيلُ البُكاءَ ، ويُكْثِرُ النُّواحَ .

ولما فرغَ من إنْشادِهِ وبُكائهِ خرجَ عليْه الخدمُ الثَّلاثةُ ، وأَمْسكوا به ، وقالوا لَه :

ـــ أَجبْ أَميرَ المُؤمِنين .

ففزِع الشَّيْخُ وخافَ ، وطلَب إليهم أَنْ يُمهِلُوه قليلًا ، حتَّى يكتبَ وَصيَّةً لأَوْلادِه ، فسارُوا به إلى دُكَانٍ قريبٍ ، أَخذَ مِنْه ورقةً وقلمًا ، وكتبَ وصيَّته ، ودفَع بهَا إلى غُلامهِ ، ثمَّ ذهبَ معهم إلى الخليفةِ .

فلمَّا وقفَ الشَّيخُ بينَ يدَىِ المأْمونِ زجرَهُ وأَنَّبَهُ وقالَ له :

ـــ مَنْ أَنتَ ؟ وماذا فعلَ بكَ البرامكةُ مِن معْروفٍ ، حتَّى

تجلسَ كلَّ ليلةٍ فى خرائبِ دُورِهم ، وتُنشِدَ هذه الأشعار ؟

فتنهَّد الشيخُ وقالَ :

ـــ يا أميرَ المؤمنين . إنَّ للبرامكـةِ عِنـدى أفضالًا كثيرةً لا تُحْصَى . أفتأْذَنُ لى أَنْ أُحَدِّثَك بحديثِي مَعهُم ؟

فأجابَه الخليفة :

ـــ حَدِّثْ وأَنْتَ آمِنٌ على نفسِك .

فسكتَ الشيخُ قليلًا ثم اندفع يقولُ :

ـــ يا أَميرَ المؤمِنين . أَنَا المنذِرُ بنُ المُغيرةِ ، مِن أَبْناءِ الملوكِ بالشّامِ . ذَهَبتْ عنّى الدنيا ، ونفِدَ مالِى ، وأُحاطَ بِىَ الدَّيْنُ ، وثقُلَ علىَّ ، حتى احتجْتُ إلى بيْعِ دارِى الَّتِى أَعيشُ فيهَا أنَا وأولادِى . فلمَّا بلغ بِىَ الأَمرُ إلى هذه الحالِ أَشارَ علىَّ بعضُ أَصدِقائِى بالذَّهابِ إلى البرامِكةِ .

فخرَجْتُ مِنْ بلدِى دِمَشْقَ ، ومعى أَكثرُ من ثلاثِينَ فَرْدًا ، ما بيْنَ امرأةٍ وشابٍّ وصَبِىٍّ وصبيَّةٍ ، ولم يكنْ معنَا مِنْ متاعِ الدُّنيا شَىءٌ . وسِرنَا حتَّى دخلْنا بغدادَ ونزلنا فى مسجدٍ من مساجدِها .

ثمَّ لبِستُ ثيابِى القديمةَ ، وخرجتُ من المسجدِ ، لأَسْأَلَ الناسَ ، بعدَ أَنْ تركتُ عِيالِى فيه جِياعًا لا شىءَ عندَهم .

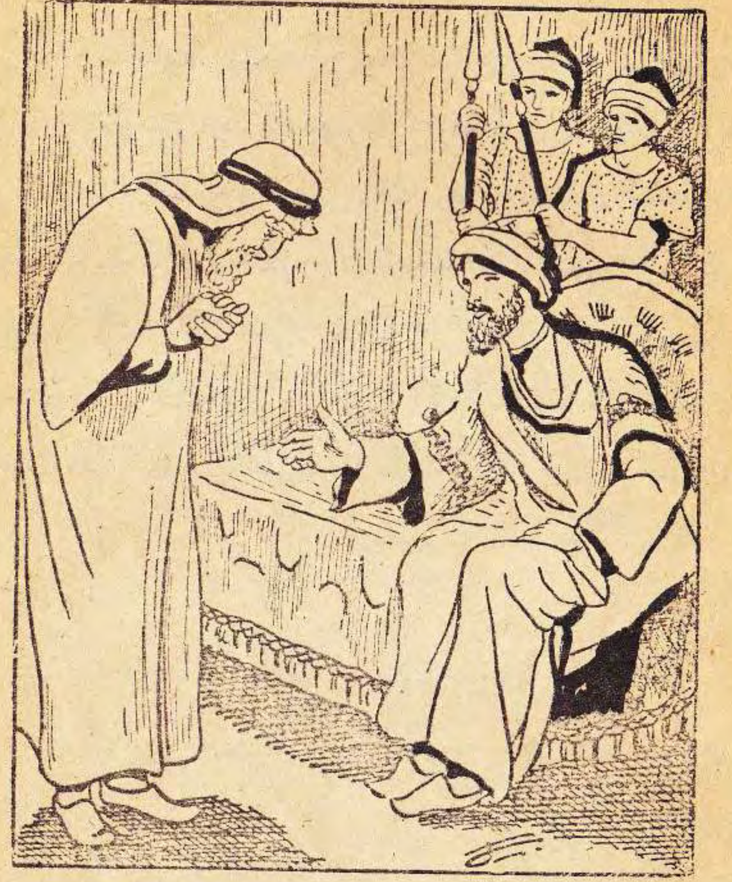

وقف الشيخ بين يدى المأمون ، فزجره وأنَّبه ، وقال له :

ـــ ماذا فعل بك البرامكة من معروف ، حتى تجلس كل ليلة فى خرائب دورهم ، وتنشد فيهم شعرا ؟

وأَخذْتُ أَطوفُ فى شوارعِ بَغدادَ سائلًا عن دُورِ البرامكةِ .

وبينمَا أَنَا سائرٌ أَبْصَرتُ مسجدًا ، فوقفْتُ على بابِه ونظرْتُ ، فوجدْتُ به مِائةَ شَيخٍ فى أَحسنِ ثيابٍ ، فدخلتُ ذلكَ المسجدَ ، وجلستُ مع أُولٰئِكَ الشُّيوخِ ، وأَنَا خَجْلانُ ، يسيلُ العرَقُ على جَبِينِى ، لأَنَّ السُّؤالَ ليسَ صِناعتِى .

ولمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى أَتَى خادمٌ فدَعا الشُّيوخَ ، فقامُوا ، وقمتُ معهُم ، وسِرْنا حتَّى دخلْنا دارَ يَحيَى بْن خالدٍ البَرْمكِىّ ، فرأَيتُ يحيى جالِسًا على دَكَّةٍ له وَسْطَ بُستانٍ ، وحولَه عشْرةٌ من أَولادِه .

فسلَّمنا عليْه ، وكان يَعُدُّنا ، فبلغْنَا مِائةً وواحدًا .

وجلَسْنا على مَقْرُبَةٍ من يحيى نَنْتظِرُ ، ونتأَمَّلُ جمالَ البستانِ الَّذى حوْلَنا .

وإِذَا بغُلامٍ جميلٍ يخرُجُ من القَصْرِ ، وقدْ سارَ أَمامَه مِائةُ خادمٍ ، قد شَدَّ كلٌّ منهم فى وسطه حزامًا ، وعلَّق فى هذَا الحِزامِ مِجْمَرةً منْ ذَهبٍ ، فى كلِّ مِجْمرةٍ عنْبرٌ ومِسْكٌ .

ثمَّ جلَس الغلامُ الجميلُ إلى جانبِ يحَيى ، ووضع الخدَمُ المجامِرَ

أَمام الغلامِ . وأَخذَ يحيى يَتكلَّمُ ، فقالَ للقاضِى الَّذِى كانَ يجلسُ إِلى جانبِه الآخرِ .

ـــ زوِّجْ بنْتِى من ابنِ عمِّى هَذا .

فتكلَّم القاضِى وخَطَبَ وزوَّجَ الغلامَ من ابنةِ يحيى .

ولما انتَهى عقْدُ الزَّواجِ أَقبلَ الخَدمُ علينَا بالمِسْكِ والعنْبرِ ، فأَخذْتُ ـــ واللهِ يا أَمير المؤمنين ـــ مِلْءَ كُمِّى مِنهُما .

ثمَّ نظرْتُ ، فإِذَا أَنَا والمشايخُ وأَولادُ يحيى والغلامُ الجميلُ مِائةٌ واثنَا عشَرَ رجُلًا ، فخرجَ إِلينَا مائةٌ واثْنَا عشَرَ خادِمًا ، معَ كلِّ خادمٍ صِينِيَّةٌ من فِضَّةٍ ، عليْها أَلْفُ دِينارٍ ، فوضَعُوا أَمام كلِّ واحدٍ منَّا صِينيَّةً . ورأَيت القاضِىَ والمشايخَ يصُبُّون الدَّنانيرَ فى أَكْمامِهم ، ويحمِلونَ الصَّوانِىَ تحت آبَاطِهمْ ، وينهضُون واحدًا وراءَ الآخَرِ ، حتَّى بَقِيتُ وحْدِى بين يدَىْ يحيَى ، وأَنَا خائفٌ أَنْ آخُذَ الصِّينِيَّةَ . فغمزَنى الخادِمُ فتجرَّأْتُ وأَخذْتُها ، ووضعْتُ الدَّنانيرَ فى كُمِّى ، وأَخذْتُ الصِّينِيَّةَ فى يدِى ، وقمتُ وسِرْتُ ، وأَنَا أَتلفَّتُ وَرائِى خائفًا أَنْ يمنَعونى من الخُروجِ بها .

حتَّى وصلْتُ إِلى صَحنِ الدَّارِ ، ويحَيى يَتْبعُنِى بنظَرِه ، فلمَّا رآنِى أَتلَفَّتُ خائفًا مذْعورًا بعَثَ وَرائِى خادِمًا وقالَ له :

— ائتِنى بذلكَ الرَّجلِ .

فردَّنى الخادمُ إليْه ، فأَمرَنى بصَبِّ الدَّنانيرِ ، ومَا كانَ فى كُمِّى مِن مِسْكٍ وعَنْبَرٍ . ثم أَمَرنى بالجُلُوسِ ، فجلسْتُ ، وسأَلنى :

— مَنْ أَنتَ أَيُّها الرَّجُل ؟ ومَا الذِىْ جعَلك تَخافُ وتضْطرِب وأَنتَ منصرِفٌ مِنْ هُنا ؟

فقصَصْتُ عليْه قِصَّتِي ، فلمَّا سمِعَها تأَثَّر غايةَ التَّأَثُّرِ وظهرَ على وجهِ الأَلَمُ ، ونادَى خادمًا لهُ فقالَ له :

— ائتِني بولدِى مُوسَى .

فلمَّا أتَى ولدُه قالَ له :

— يا بُنَىَّ ، هذَا رجلٌ غريبٌ ، فخذْهُ عندَكَ ، واحفَظْه بنَفْسِكَ ، وأَكْرِمْهُ قَدْرَ ما تَستطِيعُ .

فقبَضَ موسى على يدِى ، ومَشَى بِى إلى داره ، فأَقمْتُ فى ضيافتِه يومًا وليلةً فى أَلَذِّ عيْشٍ ، وأَتمِّ سُرورٍ .

فلمَّا أَصبحَ الصَّباحُ دعا موسى بأَخيه الْعبَّاسِ ، وقالَ له :

— إنَّ أَبِى قد أَمرنى بإكْرامِ هَذا الرَّجلِ ، وأَنتَ تَعلَمُ أَنِّى مشْغولٌ فى دارِ أَميرِ المؤمنين ، فخذْهُ عِندَكَ وأَكرِمْه ما استَطَعْتَ .

ففعلَ العبَّاسُ بى ما طلبَ مِنْه أَخُوه . ولمَّا كانَ الغدُ تَسلَّمنى منهُم أَخٌ ثالِثٌ .

ولم أَزَلْ أَتَنقَّلُ مِنْ بيتٍ إلى بَيْتٍ مُدَة عشْرةِ أَيَّامٍ ، وأَنَا فى هذه المُدَّةِ لا أَعرِفُ عَنْ أَولادِى وعيالى شيْئًا ، ولا أَدْرِى أَهمْ أَحْياءٌ أَمْ أَمواتٌ ؟

فلما كانَ اليومُ الحادِى عشرَ جاءَنى خادِمٌ ، وقالَ لى :

— قُمْ فاخْرُجْ إلَى عِيالِكَ بسَلامٍ .

فقُلتُ فى نَفْسِى :

— وَاحَسْرَتَاهُ ! أَخذوا مِنِّى الدَّنانيرَ والصِّينِيَّةَ ، وأَخرُجُ إلى عِيالى على هذِه الحالِ ! إنَّا للهِ وإنَّا إليْه راجِعُون !

ثمَّ رفعَ الخادِمُ السِّتْرَ الأَوَّلَ ، والثَّانِىَ ، والثَّالثَ ، والرَّابعَ ، وأَنَا فى غايةِ الشَّوقِ إلى رؤْيَةِ أَبْنائى . ولمَّا رُفع السِّترُ الأَخيرُ وقعتْ عيْنِى على حُجرةٍ مُضيئةٍ كالشَّمسِ حُسْنًا وضِياءً ، وهبَّتْ علىَ أَنفِى مِنْها رائحةُ الطِّيبِ والمِسْكِ .

ثم نظرْتُ يا أَميرَ المؤمنين ، فإذَا أَولادِى جميعًا يلبَسون ثِيابًا حرِيريَّةً ، مِنْ أَثْمنِ الحريرِ .

وبعثَ يحيَى إلىَّ بألْفِ دِرْهمٍ ، وعشْرةِ آلافِ دينارٍ ، والصِّينيَّةِ التى كنتُ أخذْتُها بمَا فيهَا مِنْ دنَانيرَ وطِيبٍ . ولمْ يَكتَفِ بذلكَ ، بَلْ أهدانى مَزْرعَتَيْنِ ، مِنْ أَخْصَبِ الأَرضِ ، وأَجمَلِهَا .

وأَقمْتُ — يا أَميرَ المؤمنين — معَ البرامكةِ فى دُورِهم ثَلاثَ عَشْرةَ سنَةً ، والنَّاسُ لا يعلمون أَمِنَ الْبَرامكةِ أَنَا أَمْ رجلٌ غريبٌ عنْهم ؟

وسكَتَ الشيخُ قليلًا ، ثم تابَع قِصَّته قائِلًا :

— فلمَّا غضِبَ عليهمْ أَميرُ المؤمنين هارُون الرَّشيدُ ، وأَنزلَ بهم من المصائبِ ما أنْزَلَ ، ظلَمنِى عمْرُو بنُ مَسْعَدَةَ ، وأَلزَمنى فى المزْرعتَيْنِ منَ المالِ ما لَا يَفِى دَخْلُهما بِه . فساءَتْ حالِى ، ونفِدَ مالِى ، وضاقتْ بِىَ الدُّنْيا ، فكنْتُ أَخرجُ فى أَواخرِ اللَّيْلِ ، وأَذْهبُ إلى خرائبِ دُورِ البرامكةِ ، أَبكى عليْهم ، وأَذكرُ حُسْنَ صنِيعِهم بِى .

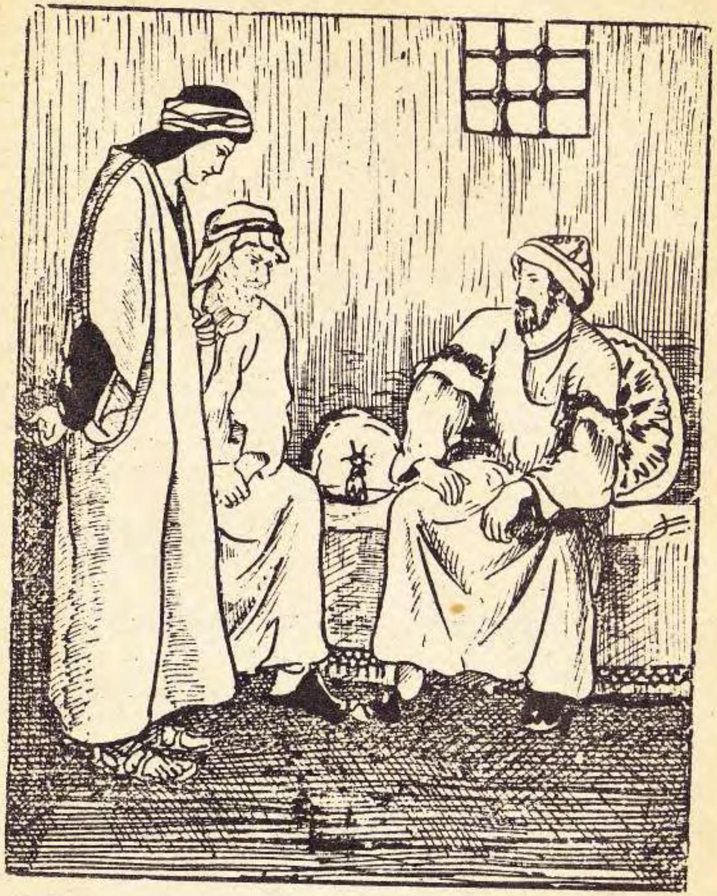

استدعى المأمون عمرو بن مسعدة ، وسأله عن الذى فرضه على الرجل فى مزرعته

٢

ولمَّا سمِعَ المأْمونُ قِصَّةَ الشيخِ معَ البرامكةِ قالَ لبَعْضِ خدَمه :

— عَلَيَّ بعمْرو بنِ مَسْعدةَ الآنَ .

فلَمَّا أتَى عَمْرٌو قالَ له :

— يا عَمْرُو ، أتعرِفُ الرَّجلَ ؟

فأَجابَه :

— نَعَمْ يا أَميرَ المؤمنين ، هُو مِنْ أَتْباعِ البرامكة .

فسأَله المأْمونُ :

— وكَمْ أَلزمْتَهُ فِى مَزْرَعَتَيْهِ ؟

فذكَر لهُ المالَ الَّذِى فرضَه عليْه فى المزْرعتَيْن .

فقالَ لهُ المأْمونُ :

— رُدَّ إليْه كلَّ ما أَخذتَه مِنْه ، واكتُبْ لهُ بالمزْرعَتَيْنِ ، ليَكُونَا له ولذُرِّيتِه مِنْ بَعدِه .

عندَ ذلكَ انفجرَ الشيخُ بالبُكاءِ ، وعَلا نحيبُه وصوْتُه .

فلمَّا رأَى المأْمونُ كَثْرَةَ بُكائِه قالَ له :

— يا هَذا ، لقَدْ أَحْسنَّا إليْكَ ، فلِمَ تَبْكِى ؟

فأَجابَه الشيخُ :

— يا أَميرَ المؤمنين . وهَذا أَيضًا مِنْ أَفْضالِ البرامكةِ عَلَيَّ ، فإنِّى لَوْ لَمْ أَذْهبْ إلَى خرباتِهم وأَنْدُبُهم ، حَتَّى علِمَ أَميرُ المؤمنين بخبَرِى ، ففعلَ بىَ ما فعلَ — ما كُنْتُ وصلْتُ إليكَ يا أَميرَ المؤمنين .

فدمَعَتْ عَيْنا المأْمونِ ، وظهرَ على وجْهِه الْحُزْنُ وقالَ :

— هذَا مِنْ أَفْضالِ البرامكةِ كما ذكرْتَ ، فعليْهم فابْكِ ، وإيَّاهُمْ فاشْكُرْ ، ولهُم فأَوْفِ ، ولإحْسانِهم فاذْكُرْ .

* * *

من غرائب الأخبار

١

فى ليلةٍ مُقْمِرةٍ ، صافيةِ السَّماءِ ، طيِّبةِ الهواءِ ، جلسَ جَماعةٌ من شُيوخِ العربِ يتحدَّثُون ، ويُقلِّبون فى أَخْبارِ السابِقِين ، ويذكُرونَ قِصَصًا عنْ كرمِهم وجُودِهم ، ومُروءَتِهم .

فقالَ قائلٌ مِنْهم :

— واللهِ ما رأَيْتُ رجُلًا كريمًا فى أَيَّامِ الشِّدَّةِ حلِيمًا فى مواقِفِ الغضَبِ ، مِثْلَ يحيَى بنِ خالدٍ البَرْمكِيِّ ، فقدْ دخلَ عليْه ذاتَ يوْمٍ رجلٌ يبْكِي ويَقولُ :

— السَّلَامُ عليك يا يَحيَى . ضاقَتْ بِىَ الدُّنيا ، وأَظْلمتْ فى عَيْنِى الحيَاةُ ، ولم يبْقَ بيْنى وبَيْنَ الموتِ إلَّا ساعَاتٌ .

فانْزَعجَ يحيَى من كلام الرَّجُلِ ، وقالَ له :

— وما الَّذِى حدَثَ لكَ حتى صِرْتَ إلى هذِهِ الحالِ الَّتِى ذكرْتَ ؟

فتنهَّدَ الرَّجلُ فى حُزْنٍ وحَسْرةٍ ، وقال :

ـــ لقدْ بعثَ إلىَّ هارونُ الرَّشيدُ مُنْذُ قليلٍ رسولًا يُطالِبُنى بعَشْرةِ آلافِ دِرْهمٍ ، ويقولُ لى : إمَّا أنْ تَدْفعَ هذَا المَالَ الآنَ ، وإمَّا أنْ أَقطَعَ رأْسَك ، وأَحْمِلَها إلَى الخَليفةِ . وها هُو الرَّسولُ واقِفٌ ببابِكَ ينْتظرُنى ، وقدْ جِئتُ إليكَ وأنَا أَعلَمُ أنَّهُ لنْ يَستطيعَ أنْ يُنْقِذَنى من الموت سِواكَ .

فلمَّا سمِعَ يحيَى هذَا الكلامَ تألَّمَ ، وبدَا على وجْهِه الهَمُّ ، وأطْرَقَ برأْسِه يُفكِّرُ فى حلٍّ لمُشكلةِ هذَا الرَّجلِ ، ثم رفَعَ رأْسَه بَعد قليلٍ ، وقَدْ أَشْرَق وجْهُه ، وزَالتْ عنْه معالمُ الحُزْنِ والكآبةِ ، ونادَى خازِنَ أَموالِه ، وسألَه :

ـــ كمْ منَ المالِ فى خِزانتِى الآنَ ؟

فأَجابه الخازنُ :

ـــ خَمْسةُ آلافِ دِرْهمٍ .

فقالَ له يحيى :

ـــ أَحضِرْهَا .

ثُمَّ بعثَ إلى وَلدِه الفَضْلِ يقولُ له :

ـــ لقدْ أَخبرْتَنى مُنْذُ أيامٍ أنَّ لدَيْكَ أَلْفَىْ درهمٍ ، وتريدُ أنْ تشترِىَ بهَا ، وقَدْ وجدتُ لكَ مزرعةً جيِّدةً ، خِصبةَ التُّربةِ ، طيِّبةَ الثِّمارِ ، فأَرْسِلْ إلىَّ بالمال لأَشتريَهَا لكَ .

فأَرسلَ الفضلُ إلى أَبيه بالمالِ الَّذى عِنْدَه .

وبعثَ يحيَى رَسولا آخرَ إلى ولدِه الثَّانى جَعْفرٍ ، يَطلبُ منْه أنْ يُرسلَ له أَلفَ دِرْهمٍ لحاجتِه الشَّديدةِ إليْها ، فأَرْسلَ جعفرٌ إلى أَبيهِ ما طلب مِنْه .

ثم أَطرقَ يحيى يفكِّرُ فيما بقِىَ على الرَّجُلِ ، ثمَّ رفعَ رأْسَه وقالَ لخادمِه :

ـــ اذهَبْ إلى سيِّدتِكَ ، واطلُبْ منها أنْ تُعْطيَكَ العقْدَ الَّذى وهبَه لهَا أَميرُ المُؤْمنين .

فذهبَ الخادمُ وعادَ بالعِقْد .

ثم اسْتَدْعَى يحيَى رسولَ الرَّشيدِ ، فلمَّا دخلَ عليْه قالَ له :

ـــ هَذا عقْدٌ كنتُ قد اشْتريتُه للخليفةِ بعشْرينَ أَلفَ درهمٍ فوهبَه لنَا . وقدْ حسَبْتُه عليْكَ بأَلْفَىْ درهمٍ فقَطْ . فَخُذِ العِقْدَ ، وخُذْ المالَ وهو ثمانيةُ آلافِ درهمٍ ، وانْصرِفْ ودعِ الرَّجلَ وشأْنَه .

فانْصرفَ رسولُ الرَّشيدِ بالأَمْوالِ والعِقْدِ ، وانْصرفَ معَهُ الرَّجلُ . فلمَّا وصلَا إِلَى البابِ قالَ الرجلُ كلامًا يَذُمُّ به يحيَى ، فتَعجَّب الرسولُ من أَمرِه ، وقالَ له :

ــ ما رأَيتُ على ظهْرِ الأَرضِ رجلًا أَنبلَ من يحيى ، وما رأَيتُ على ظهرِها رجلًا أَخبثَ مِنْكَ نفسًا ، ولا أَسوأَ خلُقًا . أَمَّا يحيى فقد أَنعمَ عليكَ بكلِّ هذِه النِّعمةِ ، ونجَّاكَ من القَتْلِ ، وأَمَّا أَنتَ فقد جَحَدْتَ هذا الجميلَ ، وذَمَمْتَ الرجلَ الذِى أَحْسَنَ إِليكَ بكلامٍ جارحٍ .

ثُمَّ تركَه ومضَى إِلى الخليفةِ ، فلمَّا قدَّمَ له المالَ والعِقْدَ أَخذَ يتأَمَّلُ العِقْدَ ، ويُقلِّبُه بينَ يديْهِ ، ويُطيلُ النَّظرَ إِليْه ، ثمَّ قالَ للرَّسولِ :

ــ أَعرِفُ أَنَّ هذَا العِقدَ كنتُ قد وهبتُه ليحيَى ، ولسْتُ أَرْضى لنفسِى أَنْ أَهَبَ هِبَةً ثم أَسْتردَّها . اذهَبْ به فرُدَّهُ إِليْه .

فلمَّا ذهَبَ الرسولُ إِلى يحيى قدَّم له العِقْدَ ، وأَخبرَه بمَا قالَ الرَّشيدُ عنه ، فسُرَّ يحيى بما فعلَ الخليفةُ وشكرَه ، ودعَا له . ثمَّ أَخبرَه بما كانَ من وقاحةِ الرَّجلِ وسوءِ أَدَبِه ، فجعلَ يحيَى يَتَلَمَّسُ الأَعذارَ للرَّجلِ ويقولُ :

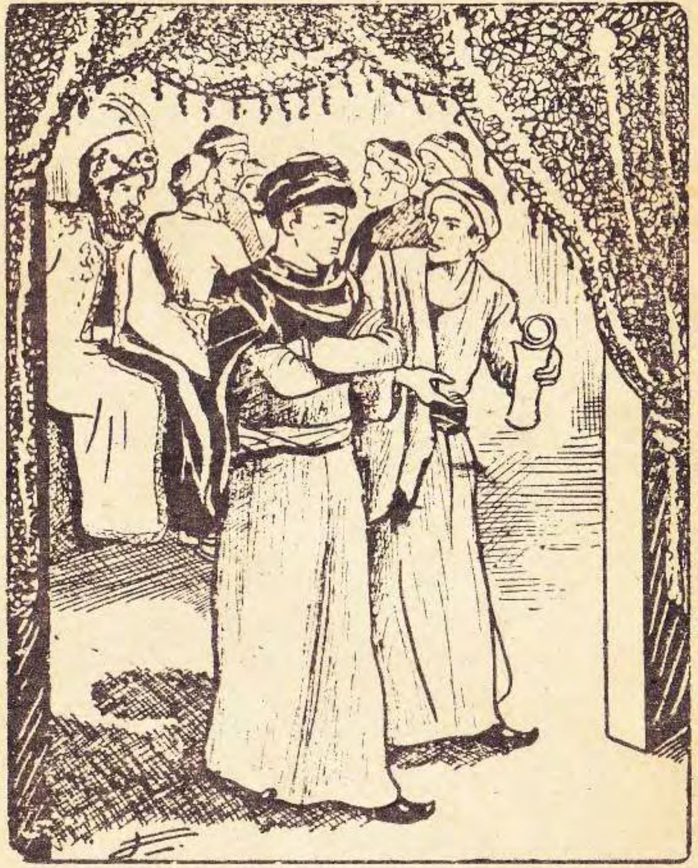

ولما وصلا إلى الباب قال الرجل كلاما يذمّ به يحيَى ، فتعجب الرسول من أمره .

ــ إنَّ الخائِفُ رُبَّمَا تكلَّمَ لِسانُه بما ليسَ فى قلبه . وهذَا الرَّجلُ كَانَ فى حَالٍ من الهَمِّ والْحُزْنِ تُعفِيه من اللَّوْمِ .

فَتَعَجَّبَ الرسولُ من نُبْلِ يحَيى وحِلْمِه وكرمِ أُخلاقِه ، وقالَ له :

ــ واللهِ ما أَدْرِى مِنْ أىِّ أَمرَيْكَ أَعجَبُ ؟ أَمِنَ الأَوَّلِ أَمْ مِنَ الثَّانى ؟ ولكِنِّى أَرَى أَنَّ الدهرَ لَنْ يَجُود بمِثْلِكَ أبدًا .

* * *

ولمَّا سمِعَ القومُ هذه القصَّةَ العَجيبةَ دَهِشُوا وقالوا :

ــ إنَّ هذَا مِنْ أعْجبِ الأخبارِ حقًّا .

٢

ثمَّ تكلَّمَ شيخٌ آخرُ فقالَ :

ــ لمَّا سمِعتُ قِصَّةَ يحَيى البرْمكىِّ مع هذَا الرجلِ تذكَّرْتُ قِصَّةً أُخرَى لهُ معَ يَزيدَ الأَحْولِ . وقدْ قصَّ يحيى عَلَىَّ هذه القِصةَ بنفسِه ، فقالَ :

ــ توالَتْ علينَا المِحَن والمصائِبُ ، ومرِضْتُ أنَا وأَبِى مرضًا شديدًا ، ولم يَكُنْ لدَيْنَا مِنَ المالِ ما نُنْفِقُه فلبِسْتُ ثيابِى وأَعدَدْتُ دابَّتِى وتَهيَّأْتُ للخروجِ ، لأُفرِّجَ عن نفسِى الهَمَّ والْحُزْنَ ، فلمَّا رأَتْنِى زوجتى أَسْتَعِدُّ للخروجِ قالتْ لِى :

ــ أَراكَ تُريدُ الخروجَ ، فاعْلَمْ أَنَّ أَولادَكَ باتُوا اللَيْلَةَ الماضيةَ بأَسْوإِ حالٍ ، وأَصبَحُوا ولا طَعامَ لَهُمْ ، ولَا أَجِدُ لدَابَّتِكَ عَلفًا .

فمزَّقَ كلامُها قلبِى . وملأَ نفسِى همًّا وحُزْنًا ، ونظرْتُ حوْلِى فى البيتِ ، فلَمْ أَجدْ شيئًا أَسْتَطيعُ أَنْ أَبِيعَه ، فأَخذْتُ أَتذكَّرُ

ما عِنْدنَا مِنْ مَتاعٍ يَصْلُح للبَيْع ، فتذكَّرتُ أَنَّ عندنَا مِنْديلًا نَفيسا ثمينًا كانَ قدْ أُهدِىَ إلىَّ ، فأَخذْتُهُ ، وأَمرْتُ الخادِمَ أَنْ يبيعَه ، فباعه باثْنَى عشرَ دِرهمًا ، واشتَرى بثمنِه عَلَفًا للدَّابَّةِ وطعامًا للصِّبْيانِ ، كفَاهُم يومًا واحدًا .

ثمَّ ركِبْتُ وخرَجْتُ لا أُدرِى أَيْنَ أَتَوجَّهُ .

وبينمَا أَنَا فى الطَّريقِ إذْ مرَّ بِى يَزيدُ الأَحْولُ فى مَوْكِبٍ كبيرٍ ، فاتَّجَهْتُ إليْه ، ورَمَيْتُ بِنَفْسى عليْه ، وقصَصْتُ عليْهِ سُوءَ حالِنَا ، وما كانَ مِنْ أَمرِنَا وأَمرِ المِنْديل ، وهوَ يَستمِعُ إلى كلامِى ، ويُتابعُ سَيْرَه ، حتَّى بلغَ المكانَ الذِى يُريدُ .

أَمَّا أَنَا فقد انْصرفْتُ عنْهُ ، وهوَ لمْ يَنْطِقْ بحرْفٍ واحدٍ ، فرجَعْتُ إلى بيْتِى كَسِيرَ القَلْبِ ، ولُمْتُ نفْسِى على أَنِّى شكوْتُ إلى يزيدَ ، وأَطلعْتُه على سِرِّى .

وأَخْبرتُ زوجَتِى بما كانَ من أَمْرِى معَ يزيدَ ، فغضِبتْ من صُنْعِى ، وحزِنَتْ لمَا قَدْ أَصابَنِى .

ولمَّا كان اليومُ الثَّانى بِعْتُ أَحدَ ثَوْبَىَّ ، وأَنفقْنَاثمنَه فى يَوْمَيْن ،

ولما جاءَ اليومُ الرَّابعُ ضاقتْ نفسى ، وجلستُ أُفكرُ ، فَانَّبتْنى زوجتى قائلةً :

— ما لِى أَراكَ حزينًا كئيبًا ، أَمَا يكفيكَ ما أَنْتَ فيه مِنْ مرضٍ ؟ هوِّنْ على نفسِكَ فإنَّ اللهَ لا يَنْسَى أَحَدًا .

فلمَّا سمِعْتُ كلامَها قُمتُ فركبْتُ ، وخرجْتُ وأَنَا لا أَدرِى أَيْنَ أَذْهبُ .

وبينَما أَنَا سائِرٌ فى طريقِى قابَلْتُ صدِيقًا لِى ، فقالَ لى :

— رأَيتُ اليومَ رجلًا يطلُبُكَ ويسأَلُ عنْكَ .

ولم أَلْبَثْ أَنْ حدَّثنِى رجلٌ آخَرُ بِمِثْل هذَا الكلامِ ، فعدْتُ إلى دَارِى لِأَعْرفَ الخبرَ ، فرأَيْتُ هناكَ رسولًا من يزيدَ الأَحولِ ، جاءَ يطلبُ حضورِى إليْه .

فذهبْتُ معَ الرسولِ حتَّى دخلْتُ عليْه ، فقالَ لى يزيدُ :

— يا بُنَىَّ ، شَكَوتَ إلىَّ بالأَمْسِ شَكْوَى ، لم يكُنْ ينفعُ فى جوابِها إلَّا الفِعْلُ .

ثمَّ أَعطانى ثلاثِينَ أَلفَ دينارٍ ، فعجِبْتُ من أَمرِه ، وعجزْتُ عن شُكْرِه ، ودَعَوْتُ له بالخَيْر .

ورَجَعتُ إلى أَبِى وزوجتِى ، وأَخبرتُهما الخبرَ ، ففرحَا بالمالِ غايةَ الفرحِ .

ولم نَزَلْ نُنْفِقُ هذا المالِ ، حتَّى تبدَّلَ الحالُ غيرَ الحالِ ، وصِرْنَا إلى ما نحنُ فيهِ مِنْ غِنًى وثروةٍ نحمَدَ اللهَ عليْهما .

فطرِبَ الحاضِرون من هَذا الخبرِ وعجِبُوا ، وقالُوا :

ــ إنَّ هذا أَيضًا مِنْ غرائبِ الأَخبارِ .

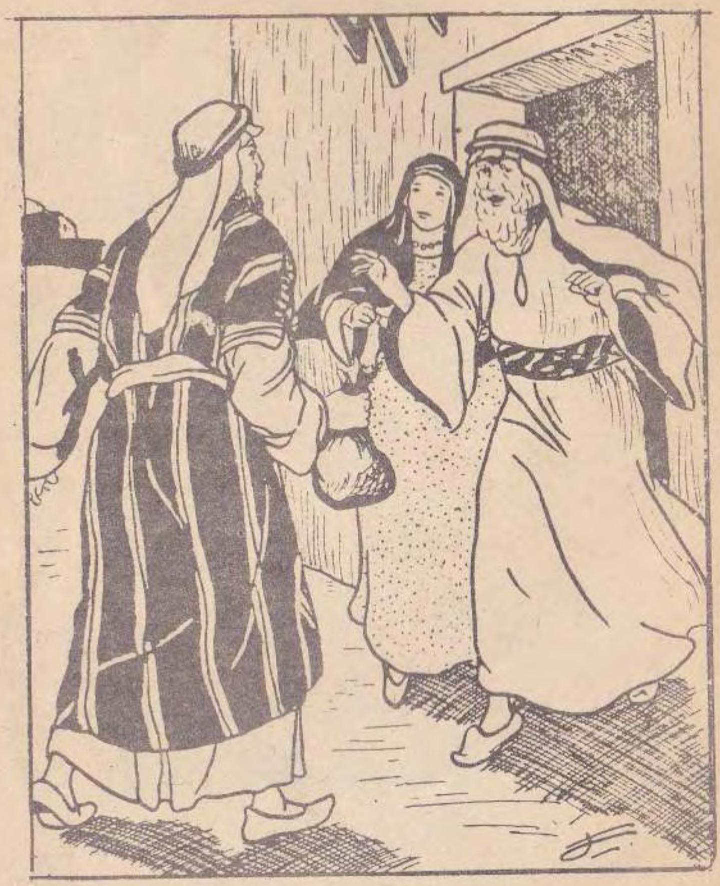

رجعت إلى أبى وزوجتى ، وأخبرتهما بالخبر ،
ففرحا بالمال غاية الفرح .

٣

قالَ ثالثٌ ، وقدْ أعجبَه ما سمِعَ عنْ يحيى البَرمَكيِّ :

ـــ هذِه أخبارٌ غريبةٌ حقًّا ، ولكنْ ما رأْيُكم فى قِصَّةِ قيْس بنِ عاصِمٍ الْمِنْقَرىِّ مع قاتلِ ابْنِه ؟

قالَ الحاضِرون :

ـــ وما قِصَّتُهما ؟

فقالَ الرجُلُ :

ـــ جلَس قيْسُ بنُ عاصِمٍ الْمِنْقَرِىُّ يومًا بفِنَاءِ بيْتِه ، يُحَدِّثُ قومَه ، فأتَاهُ النَّاسُ بشابٍّ مكتوفٍ ، وآخرَ مقتولٍ وقالُوا له :

ـــ هَذا ابنُ أخِيكَ قدْ قتَلَ ابنَكَ .

فوَاللهِ ما قطعَ قيسٌ كلامَه ، ولا تحرَّكَ من مكانِه ولكنَّهُ التفتَ إلى ابنِ أخيهِ ، وقالَ له :

ـــ يا ابْنَ أخِى أسأْتَ إلى رحِمِكِ ، ورميْتَ نفسَك بسهْمِكَ ، وقتلْتَ ابنَ عمِّكَ .

ثم سكتَ قليلًا ، وقالَ لابنِه الآخرِ :

ـــ قُمْ يا بُنَىَّ ، فحُلَّ كِتافَ ابنِ عمِّك ، وادفِنْ أخاكَ ، وأرْسِلْ إلى أُمِّه مائةَ ناقةٍ ، دِيَةَ ابنِها ، فإنَّها غريبةٌ عنَّا ، ولعلَّ لهَا فى هذِه الدِّيَةِ بعضَ العَزاءِ .

* * *

فلمَّا انتهَى الثالثُ مِنْ قِصَّتِه صاحَ الحاضرونَ :

ـــ هذه أغربُ الأخبار ، وإنَّ ليلَتنا هذه من أطيبِ اللَّيالى ، وحديثَها من أرْوَعِ الأحادِيث .

ثم انصرفُوا على أنْ يكونَ لهمْ عَوْدٌ قريبٌ .

* * *

٣

قالَ ثالثٌ ، وقدْ أعجبَه ما سمِعَ عنْ يحيى البرمَكيِّ :

ـــ هذِه أَخبارٌ غريبةٌ حقًّا ، ولكنْ ما رأْيُكم فى قِصَّةِ قيْسِ بنِ عاصِمٍ الْمِنْقَرىِّ مع قاتِلِ ابْنِه ؟

قالَ الحاضِرون :

ـــ وما قِصَّتُهما ؟

فقالَ الرجُلُ :

ـــ جلَس قيْسُ بنُ عاصِمٍ الْمِنْقَرِىُّ يومًا بفِناءِ بيْتِه ، يُحَدِّثُ قومَه ، فأَتاهُ النّاسُ بشابٍّ مكتوفٍ ، وآخرَ مقتولٍ وقالُوا له :

ـــ هَذا ابنُ أَخِيكَ قدْ قتَلَ ابنَكَ .

فوَاللهِ ما قطعَ قيسٌ كلامَه ، ولا تحرَّكَ من مكانِه ولكنَّهُ التفتَ إلى ابنِ أَخيهِ ، وقالَ له :

ـــ يا ابْنَ أَخِى أَسأْتَ إلى رحِمِكَ ، ورمَيْتَ نفسَكَ بسهْمِكَ ، وقتلْتَ ابنَ عمِّكَ .

ثم سكتَ قليلًا ، وقالَ لابنِه الآخرِ :

ـــ قُمْ يا بُنَىَّ ، فحُلَّ كِتافَ ابنِ عمِّك ، وادفِنْ أخاكَ ، وأَرْسِلْ إلى أُمِّه مائةَ ناقةٍ ، دِيَةَ ابنِها ، فإنَّها غريبةٌ عَنَّا ، ولعلَّ لهَا فى هذه الدِّيَةِ بعضَ العَزاءِ .

* * *

فلمَّا انتهى الثالثُ مِنْ قِصَّتِه صاحَ الحاضرونَ :

ـــ هذه أَغربُ الأَخبار ، وإنَّ ليلَتنا هذه من أَطيبِ اللَّيالى ، وحديثَها من أَرْوَعِ الأَحادِيث .

ثم انصرفُوا على أَنْ يكونَ لهمْ عَوْدٌ قريبٌ .

* * *

قصص عربية

(١) أيام النعمان
(٢) الملك المخدوع
(٣) فارس الشهباء
(٤) جابر العثرات
(٥) الملك الهارب
(٦) الاعتراف بالجميل
(٧) بين المأمون وعمه
(٨) من نوادر الطفيليين
(٩) عروة وعفراء
(١٠) حيلة بارعة
(١١) قاتل الأسد
(١٢) عند ملك الصين
(١٣) زعيم الصعاليك
(١٤) جزاء الاحسان
(١٥) حلة النعمان
(١٦) قاضى الكوفة
(١٧) فتح بيت المقدس

دار مصر للطباعة

الثمن ٢٥ قرشا